أن يبقى في مدن الأقاليم أوقاتًا تطول وتقصر، فلم يكن له بد من أن يتخذ الأصدقاء من عملائه التجار، ومن أن يتخذ الأصفياء الذين يئوونه إذا كان في هذه المدينة أو تلك، والذين يئويهم حين كانوا يهبطون إلى القاهرة لمثل ما كان يرحل له من البيع والشراء، وكان عميله في هذه المدينة أبا خالد بن سلام. وكان علي كصديقه وعميله تاجرًا بعيد التجارة، نشأ في قرية من قرى الريف في مصر السفلى، وفي أسرة من هذه الأسر التي كانت تتجر بالماشية وتحصِّل من هذه التجارة مالًا عظيمًا، ثم رأى أبوه سلام ذات يوم أنَّ أهل القرى يُستكرَهون على امتلاك الأرض واستثمارها، وكان أبغض شيء إليه أن يكون صاحب أرض وزراعة، يتعرَّض لما يتعرض له الفلاحون من الظلم والعنف، ومن القسوة والشدة، ومن هذه السياط التي كانت تأكل أجسامهم حين يُقَصِّرون مع سادتهم أو مع الحكومة، أو حين يتهمهم سادتهم وتتهمهم الحكومة ظلمًا بالتقصير، ففرَّ سلام بأسرته وذهبه وفضته إلى مصر العليا، واستقر في مدينة من مدنها، واستأنف فيها حياة التجارة، ولكنه لم يتجر في الماشية، وإنما اتجر في البن والسكر والأرز والصابون. وقد نمت تجارته، واستطاع أن يترك لابنه عليٍّ ثروة ليس بها بأس. وكأن سلامًا هذا قد أورث ابنه ما كان يمتاز به من حب الحرية، وتجنب السلطان، والاجتهاد في ألا يخضع لحياة تفرضها عليه القوة أو النظام فرضًا، فقد شب عليٌّ فرأى الحكومة تريد أن تستكره الناس على أن يعملوا في الجيش، فلم يتحرج من أن يطيح إبهامه، حتى إذا تقدم للفرز رُدَّ؛ لأنه ليس صالحًا للخدمة العسكرية.

ووُلد له ابنه خالد، فدفعه إلى الكُتَّاب كما دفعه أبوه هو إلى الكُتَّاب. ولكنه رأى الحكومة تريد أن تستكره الناس على أن يتعلموا في المدارس النظامية، وكان يرى هذه المدارس إثمًا من الإثم وزورًا من الزور، فهرَّب ابنه من المدينة وجدَّ في تهريبه حتى علمه التعليم الموروث، فحفظه القرآن جالسًا على حصر الليف، ونزهه عن هذه المدارس التي لا يتعلم الصبيان فيها شيئًا، وإنما يلوون ألسنتهم بالتركية، وبلغة أخرى يسمونها لغة الفرنسيس. وكان علي يكره الترك كرهًا شديدًا، لا يتصور التركي إلا ظالمًا غاشمًا، لا يعرف عدلًا ولا دينًا ولا قانونًا ولا احتشامًا، وكان يكره الفرنسيس كرهًا شديدًا، يذكر ما كان الناس يتحدثون به عنهم من الشر، ولكنه كان يحب الدنانير الفرنسية ويؤثرها على غيرها من النقد ولا يكاد يجتمع له شيء من ذهب أو فضة إلا استبدل به دنانير نابوليون.

وقد تقدمت السن بابنه خالد حتى كاد يبلغ العشرين. وهو لم يصنع شيئًا إلا أنه حفظ القرآن، وجعل يعمل مع أبيه في تجارته يقبل عليها حينًا وينصرف عنها أحيانًا،